

تفعيل مفهوم رؤية العالم في قضية التعايش

د. قيس محمود حامد *

مقدمة:

في عالم اليوم الذي أصبح يسوده العنف و تحكمه الحروب- أصبحت هناك ضرورة ملحة لترسيخ و تشجيع ثقافة السلام و التعايش بين البشر، و بما أننا مسلمون أصحاب رسالة تسعى لإصلاح حال الناس و إخراجهم من ظلمة الجهل و الجاهلية القائمة على الإيمان بأن القوة المادية وحدها هي الكفيلة بالحفاظ على الكينونة و الكيان ، يجب أن نكون سابقين لتقديم طرحنا للخروج من هذا المأزق العام الذي لن يستتني أحداً إذا ما استمر على هذه الوتيرة ، و يزيد من إيماننا بإمكان هذا العمل أنّ الإسلام قد قام بهذه المهمة منذ ظهوره ، و قد استطاع إخراج البشرية من ظلمة الجاهلية الأولى ؛ فوجب علينا اليوم السعي لإخراج الناس من ظلمة الجاهلية الثانية التي لا مخرج منها إلا بالحوار الهادف و الجاد بين جميع الأطر الحضارية و الثقافية و الدينية ، و الإمكان -كما يرى الباحث - قائم باستمرار ، و لكن حتى يكون الحوار مثمراً ينبغي أن يكون قائماً على معرفة تامة بالأسس الفكرية و العقديّة و الحضارية التي ينتمي إليها الآخر و التي تكوّن في مجملها ما يعرف بـ"رؤى العالم" ؛ فالحوار إذن يبدأ بالتعرف على "رؤية العالم" التي يعتمدها المحاور لاستخراج القواسم المشتركة بينه و بين الآخر ولمراعاة حقائق أصبحت في حكم البديهيات اليوم ، و من أهم هذه البديهيات "النسبية الثقافية" التي تتيح للجميع فرصة الطرح و إمكان الوجود على ظهر هذا الكوكب ، و تلك البديهية تتناقض -بالضرورة - مع العنف ، و تنتمى مع كسر الأطر المغلقة ؛ لأنّ هذه الأطر المغلقة ما هي إلا أغلال و أصار فكرية ؛ ولهذا لا يمكن إطلاقاً الترحيب بالمناقشة مع الآخر الآتي من عالم مختلف و من إطار مختلف إلا بالتخلص من تلك الأغلال ، و لا شك أن هذه المناقشة تتيح فرصة اكتشاف الأغلال لدى المكبلين بها حيث إنهم لم يشعروا بها من قبل¹ ، و هذه عملية ممكنة بالطبع و ضرورية لبدء الحوار ، و هذه الورقة لها هدفان أساسيان ؛ الأول : إن الحوار هو الوسيلة الوحيدة ذات الأثر الإيجابي باستمرار للتعايش مع الآخر ، و الهدف الثاني : هو أن "رؤية العالم" تعد أهم الأدوات و المفاتيح لفهم الآخر وهي التي تفضي إلى التحوار أو التعامل معه على أرضية صلبة.

أما الفرضية الأساسية التي تسعى الورقة لإثباتها فهي أن التعايش بين الأطر المتباينة ممكن إذا ماتم تفعيل رؤى العالم و الاستفادة منها في إثراء الحوار . و لكن بالرغم من الأهمية البالغة لـ"رؤى العالم" في إدارة و ترسيخ مبدأ الحوار بين الحضارات، إلا أن هذا المفهوم لم يلق الاهتمام المناسب لدى المشتغلين بقضية الحوار بين الحضارات ، و نأمل أن تسهم هذه الورقة في إلقاء بعض الضوء على هذه القضية.

* أستاذ مساعد بمعهد إسلام المعرفة، جامعة الجزيرة.

¹بوبر،كارل، أسطورة الإطار في دفاع عن العقل و العقلانية،ترجمة يمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة الكويت،2003، ص81.

وقبل الدخول في توصيف الرؤى الكونية وبيان ضرورتها والموقف منها - يجب ابتداءً طرح عدد من الأسئلة لاستجلاء حقائق أساسية تتعلق بها ؛ وهي :

ما المقصود بالرؤية الكونية أو رؤية العالم؟ .

وما هي مكوناتها ؟ .

وهل هي منتج بشري أصيل أم أن هناك تدخلاً لعوامل غير بشرية في تكوينها؟ .

وهل هناك رؤى متعددة أم رؤية واحدة؟ .

وإن كانت هناك رؤى متعددة فهل يمكن توحيدها في رؤية واحدة ؟ .

وهل هذا العمل ممكن وما هي ضرورته؟ .

هل يمكن تصنيف رؤية العالم على أنها نظرة فلسفية أم هي موقف وجودي أو بالأحرى موقف من الوجود؟ .

وهل هذا الموقف الفلسفي أو الوجودي هو موقف قصدي عقلاني أم ناتج عن ضغوط خارجية مورست و تمارس على الفرد وعقله؟ .

-إن كانت الرؤى الكونية يتم تكوينها قصدياً ؛ فهل يتم ذلك بجهد فردي أم هو عمل جماعي؟

- وهل يتم إنجاز الرؤية في جيل واحد أم هي نتاج لتراكم خبرات لأجيال متلاحقة؟

-كيف يتم تصنيف الرؤى الكونية . العلمية ، الفلسفية ، الدينية ، الفنية وإمكان التداخل فيما بينها وبالتالي إبراز الدور الذي تلعبه القيم من حيث السلب و الإيجاب ؟

-وأخيراً ما هو الموقف المطلوب من تلك الرؤى .

مفهوم رؤية العالم :

يقصد بـ"رؤية الكون" أو العالم وغيرها من التسميات تلك التصورات المنبثقة تحت منظار شمولي يُعنى بالمشهد الكلي للكون ؛ من حيث أصله وماهيته ومصيره وكيفية التعايش معه واستثماره بما يعود على الإنسان بأكبر قدر من المعرفة ويهيئ له معيشة ناجحة تعود عليه بالنعم والخير العميم ، والرؤى - بهذا المعنى خلال التجربة الإنسانية - عديدة ؛ سواء كانت دينية "يهودية وإسلامية" أو فلسفية "الليبرالية والاشتراكية" ، ونحو ذلك مما طرح عبر التاريخ من رؤى اتسم بها أية مجتمع من المجتمعات².

ويقوم مفهوم "رؤية العالم" في أساسه على دراسة مجموعة الأفكار التي يعتنقها أحد أفراد المجتمع عن ذاته وعن الآخرين وعن العالم الذي يعيش فيه ؛ مما يعني تحديد هذه الأفكار داخل الثقافة ذاتها وليس من خارجها ؛ كما هو الشأن في الدراسات الأنثولوجية والأنثروبولوجية التقليدية. والعادة أن يشار إلى ذلك الفرد في دراسات رؤى العالم بكلمة " الشخص" أو الذات self ونحو ذلك ؛ فإن استخدام المفهوم يقتضي إبراز الذات في مواجهة الكون بأسره وبكل مشتملاته ومكوناته ،

² زياد الدغمين : العولمة وانعكاساتها على العالم الإسلامي في المجالين الثقافي والاقتصادي ، تحرير : وقائع الندوة العلمية التي عقدت في بتاريخ 3 - 4 أيار مايو 2006م في الأردن بالتعاون بين المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومنظمة الايسيسكو وجامعة آل البيت - دار الرازي الأردن الطبعة الأولى 2008م ، ص 314

وبتعبير آخر أبسط فإن مفهوم " رؤية العالم " هو الطريقة التي ينظر بها شخص ما أو شعب ما إلى الكون ككل ، ومن منظور "رؤية العالم" هذه يرى الإنسان الكون، ويحدد موقفه منه .

وبهذا فإن دراسات "رؤى العالم" تنتمي إلى مجال العلم الإنساني أو الدراسات الإنسانية؛ وليس إلى مجال العلم الطبيعي سواء في النظرية أو المنهج أو أسلوب التفسير والتحليل ، كما أنها لا تهدف إلى الوصول إلى تعميمات كلية تكون لها صفة القانون العلمي مثلما تحاول الأنثروبولوجيا البنائية الوظيفية لدى بعض علمائها على الأقل ، وإنما تهتم دراسات رؤى العالم بدلا من ذلك بمحاولة (الفهم) العميق لطبائع الأشياء من الداخل ؛ فالعلم بالمعنى الدقيق للكلمة – أي العلم الطبيعي – يدرس ظواهر الأشياء دون أن يهتم بداخلها؛ إذ ليس للأشياء طبيعة (داخل) أو (باطن) حسب المنهج المتبع في العلوم الطبيعية ؛ وذلك بعكس الحال بالنسبة للإنسان الذي هو موضوع العلم الإنساني بالمعنى السابق ذكره ؛ والذي هو أيضاً موضوع دراسات رؤى العالم ؛ وبذلك يمكن تطبيق مفهوم " رؤى العالم " عليه ؛ ولذلك فإن مفهوم "رؤى العالم " أو " النظرية إلى العالم " يتعارض مع إمكان تطبيق المنهج العلمي (أي مناهج العلم الطبيعي) الذي لا يصلح للظواهر والأحداث والأفكار الإنسانية أو التاريخية ؛ فالعلم الطبيعي لا يفعل سوى شرح الظواهر والأحداث عن طريق ربطها بغيرها من الظواهر التي تتلاءم مع القوانين العامة التي لا تكشف عن (الطبيعة الداخلية) لتلك الأشياء أو الظواهر التي يهتم بدراستها ؛ فالاهتمام بالمظهر المادي و السبب المباشر أعاق العلوم الإنسانية عن الوصول إلى الأسباب الحقيقية التي تقف وراء الظواهر والأحداث ؛ على الرغم من أن الكثير من العلماء اليوم صاروا ينفرون من مصطلحات من قبيل باطن وداخل و ما ورائي ، و لكن ما تبحث عنه رؤى العالم في الحقيقة ليس هو الميتافيزيقي و إنما هو البنيوي ، و هذا البنيوي إنما يتكشف عندما تعرف البنى الأساسية التي تكوّن رؤى العالم ، وبهذا المعنى يمكن أن القول : إن "رؤية العالم" ليست منتجاً بشرياً خالصاً ، أو على الأقل هناك عوامل غير بشرية تتدخل في تشكيل هذه الرؤية ، و تلك العوامل منها ما هو طبيعي ؛ إذ إن البيئة تكون محدداً للتفكير -في الغالب- بما تقدمه من مميزات أو بما تفرضه من ضغوطات على الفرد، كما يدخل الوحي باعتباره عاملاً متجاوزاً لحدود وقوانين العقل الإنساني في كثير من نواحيه ، وهذه العوامل الخارجية - بالتحديد- هي التي تدفع بـ"الرؤى الكونية" أو "رؤية العالم" للتمايز و التعدد، كما يلعب عامل الزمن دوراً حاسماً في تطوير و تداخل تلك الرؤى ؛ ولهذا فإنه ما من سبيل قط لتجنب تباين الرؤى وتعددتها واختلافها .

وتصنف "رؤى العالم" على أنها موقف فلسفي ؛ من حيث إنها نظرة كلية متجاوزة للأحداث والمواقف الفردية ، ومن حيث أنها لا تقع ضمن مجال دراسة واحد داخل التخصصات المعروفة، و هي في نفس الوقت موقف وجودي* من حيث إن الإنسان يجد نفسه مضطراً لمواجهة الواقع و استيعابه والتعامل معه ، و لما كان الواقع فيه من التعقيد ما يجعله عصبياً على الفهم و ضنيناً بالأجوبة - كان لا بد للإنسان من البحث عن إجابات مقنعة لما يشغله من قضايا و مسائل من قبيل : من أين أتينا؟ بل من أين أتى الوجود نفسه؟ و هو سؤال عن المصدر ، وللإجابة عن تلك الأسئلة يستعين الإنسان بكل ما

* رؤية العالم موقف وجودي ولا نعني بذلك " الوجودية" كمدرسة محددة في الإطار الفلسفي.

هو متاح له من معارف ؛ سواء كانت هذه المعارف في الدين أو العلم أو الأسطورة ؛ وذلك حسب النسق الفكري الذي يستشف منه الإنسان أجوبته و حلوله لمشكلاته.

وعلى الرغم من أن الأسئلة الوجودية التي سبقت الإشارة إليها أسئلة فردية - أي نابعة من صميم كل فرد - إلا أن تشكّل الرؤى في النهاية ليس عملاً فردياً وإنما هو عمل تكاملي جماعي وتراكمي ؛ أي : أن هذه الرؤى تتشكل نتيجة لتراكم أفكار و خبرات أجيال ، و يمكن أن نستثني من ذلك الرؤى الدينية التي تُستمد من مصدر سماوي على وجه التحديد. أما تفعيل "الرؤى الكونية" في تفسير الحدث الإنساني واكتشاف البنى الأساسية لترسيخ ثقافة التعايش فإن ذلك إنما يكمن في الكشف عن المشتركات بين تلك الرؤى المختلفة.

المشتركات بين الرؤى:

يعد الفاروقي واحداً من الذين اهتموا بدراسة "رؤية العالم" ، وركّزوا على إبراز المشتركات بين الرؤى المختلفة لعمل لبنة أولى للحوار الهادف و الجاد بين الأطر المختلفة ، وبصفة خاصة بين أتباع الديانات السماوية الثلاث ؛ فالوحدة بين الإسلام والمسيحية واليهودية - عند الفاروقي- لا تستند إلى السامية فحسب بل تستند إلى وحدة أصول التصور الديني ؛ وهذا التصور هو الذي يجعل هذه الأديان الثلاثة تنفصل في التصور الديني للخالق وغاية الخلق عن الأديان الفرعونية والهندية والصينية ، ثم إن هذه الأديان الثلاثة تصوغ علاقة الإنسان بربه ثم بمن حوله من الخلق لله³. ولكن رغم أهمية تلك المشتركات بين الرؤى و جدواها في التمهيد للحوار الثقافي و الحضاري الهادف إلا أنها لم تتم المقارنة بينها بصورة مقنعة ؛ وذلك يعود - في جزء منه - لطبيعة الموضوع ؛ حيث يصعب دراسة "رؤى العالم" المتعددة لشخص و احد ؛ ولأجل ذلك اعتذر ليو ابوستل في كتابه (رؤى العالم من التجزئة للتكامل) من عدم تناوله لبعض الرؤى ومنها الرؤية الإسلامية للعالم ؛ إذ ذكر في هذا الكتاب أن هذه المهمة ينبغي أن يضطلع بها المؤمنون بتلك الرؤى ، ولكن هناك جهداً أقل من استعراض الرؤى نفسها يمكن القيام به ؛ وهو عرض المشتركات بين "رؤى العالم" ؛ حيث أن هذه الرؤى نفسها معروضة و متاحة ؛ ومن ثم يمكن - بجهد بسيط - استخراج المشترك بينها ، ومن هنا يمكن أن نعتبر الدراسة التحليلية التي قام بها ماكس فيبر لـ "رؤى العالم" عند أصحاب المذهب البروتستانتي دراسة رائدة في هذا السياق ؛ بل وفي العلوم الاجتماعية بشكل عام ؛ إذ يرى فيبر⁴ أن "رؤى العالم" كان لها تأثير عميق في تأسيس مبادئ أصحاب المذهب البروتستانتي في أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وهذه الرؤى - لدى أصحاب المذهب البروتستانتي والتابعين للمبادئ الكالفينية Calvinism - تفسر الأمور الدنيوية من خلال مضمون ديني، وهي تفسر الكون أو العالم ككل طبقاً للأطر والمبادئ التالية:

1-إن الكون قد خلقه إله متسام متعالٍ.

2-إن الكون له معنى فقط من خلال علاقته بإرادة الله.

3-النظرة للإنسان على أنه أداة أو وسيلة تتأسس بها إرادة الله على الأرض.

³ زياد الغامين، العولمة، مرجع سابق، ص 569

⁴ انظر Weber, Max, The Protestant Ethic and The Spirit Of Capitalism, London Allen And Unwin, First Publication

4- الناس لديهم قابلية لارتكاب المعاصي طالما هم منغمسون في الملذات الحسية الدنيوية.

5- الإيمان بالقضاء والقدر واعتبار الخلاص منحة وعطاء من الله .

كما يرى فيبر أن سعي الفرد نحو الخلاص يعتمد بشكل أساسي على رؤيته للكون أو "صورة العالم" التي لديه ، فالخلاص إنما يكون له معنى عندما يعبر عن صورة متنسقة عن العالم ومتعلقة به ، أو عندما يمثل "وقفه في مواجهة العالم" ، و يرجع الفضل في بلورة تصور أو مفهوم "رؤية العالم" وتحديد معناه وخصائصه لروبرت ردفيلد⁵ Ropert Redfield ، وتتمثل هذه الخصائص في الآتي :

1- تعتبر الذات "self" هي محور رؤى العالم التي من خلالها يمكن ملاحظة العالم أو الكون .

2-تتضمن "رؤية العالم" على غير الذات ؛ وذلك نحو :

أ-سائر البشر أو الآخرين من الناس

ب-غير البشر ، ويشمل ذلك الطبيعة والله .

3-المكان.

4-الزمان.

وبتحليل تلك العناصر لمعرفة مدى تأثيرها على الرؤى يتضح أن الذات يمكن أن تكون هي الذات الفردية ؛ أي : ذات الفرد المحدد "موضوع الدراسة" ؛ من حيث هو إنسان منتمٍ لمجموعةٍ محددة وموحدة بـ"رؤية للعالم" ، و يمكن أن تتجاوز الذات هذا الوضع الفردي الخالص لتكون معبرة عن الفئة أو المجموعة مقابل الآخرين، فـ"الذات" - بالمعنيين - متأثرة برؤية العالم ومؤثرة فيها ؛ من حيث نظرتها التقييمية لنفسها ؛ حيث يدخل في هذه الحالة إدعاء السمو والتعالي على الآخرين ؛ فيشكل هذا الموقف طريقة التعامل مع الآخرين: إما على أنهم أسياد أنداد أو عبيد...الخ ، و النظرة للذات تنعكس أيضاً على النظرة أو الموقف من غير الذات في كل جوانبه الطبيعي الإنساني والإلهي، ويمكن أن نجد النموذج الأمثل لتمثل ذلك التأثير المتبادل في حالة الشعب اليهودي ؛ فنظرة لذاته على أنه أسمى البشر جعلته يحتكر ربوبية الله لنفسه فقط ؛ فأصبح "الله" في هذه الرؤية إلهاً للشعب اليهودي وحده ؛ فهذه النظرة الإقصائية لا بد من أن تمارس حضورها في كل مستويات أو مراحل تكون رؤية العالم لهذه الفئة من الناس.

أما المكان و الزمان فهما حاكمان لرؤية العالم أكثر من كونهما محكومان بها، فتأثير المكان يظهر في صورة التأثير البيئي على طباع ومزاج الإنسان الذي يتحول مع مرور الزمن إلى أفكار ومعتقدات ، أما تأثير الزمان فيتمثل في عملية الاستيعاب والتجاوز للرؤى المختلفة، ويتموضع في التاريخ و يتجلى بعد ذلك في شكل ثقافة و قيم...الخ. و من الحقائق المهمة التي ينبغي الانتباه لها أن التدافع الثقافي يمكن أن يفقد كثيراً من قيمته العظمى إذا كانت إحدى الثقافات المتدافعة تعتبر ذاتها العليا والأكثر تفوقاً بشكل عام ، وكذلك إذا اعتبرها الآخرون هكذا ، ؛ إذ إن ذلك يقوّض - بصورة مباشرة - القيمة العظمى للتلاقح الثقافي والحضاري ؛ لأن أعظم قيمة لهذا التلاقح الثقافي والحضاري أن يستدعي اتجاهاً نقدياً ، وبمعنى آخر

⁵ روبرت ردفيلد عالم أمريكي في مجال الانثروبولوجيا من مواليد 1897. تخصص في الدراسة الاثنولوجية والاجتماعية لأمريكا الوسطى واشتهر كذلك بدراساته عن المجتمعات الصغيرة.

: إذا بات فريق من الناس مقتنعاً بدونيته فإن هذا الاتجاه النقدي لمحاولة التعلّم من الآخر سوف يحل محله نوع من التسليم الأعمى.

أما مكونات رؤية العالم كما حددها كتاب (رؤية العالم من التجزئة إلى التكامل) (World Views From Fragmentation To Integration)⁶ فهي:

1- النموذج.

2-القيم.

3-المعرفة.

4- التفسير.

5- الأفكار.

6- المستقبليات.

7- الفعل.

ولكن ليس من الضروري أن تكون كل هذه المكونات واضحة في النموذج الفكري المحدد حتى يكون جديراً بهذا الاسم ؛ فالنظرة التفسيرية التي تركز - بطبيعة الحال- على الماضي فقط هي بمعنى ما من المعاني "رؤية كونية" ؛ طالما أنها تجيب عن السؤال الوجودي المتعلق بالنشأة "نشأة العالم و الإنسان" ، ولكن نادراً ما تكتفي نظرية أو رؤية للعالم بالجانب الماضي "النشأة" ؛ فالسؤال عن الماضي والنشأة يقود بالضرورة للتساؤل عن المصير ، وهنا تدخل المستقبليات بمعنى ما، والسؤال عن المستقبل يقود للتساؤل عن الحاضر ، حاضر الإنسان وما يواجهه من مشكلات ، وذلك سؤال مقترن بجانبين غير منفصلين من مكونات رؤية العالم ؛ وهما : الفعل و القيم ، وهذان الجانبان تحكهما علاقة تبادلية شديدة الشبه بمغالطة البيضة والدجاجة . فمن الصعوبة بمكان الإجابة بصورة قاطعة بأن القيم أسبق من الفعل أم العكس ، فمن ناحية نجد أن القيم هي المحدد الأقصى للفعل ؛ بحيث يمكن أن نعتبر المحافظة على الحياة أو الوجود هي القيمة الأولية التي تدفع الإنسان للفعل والعمل، و لكن يمكن القول بأنّ القيم ليست مفطورة في الإنسان أو على الأقل جزءاً كبيراً منها ليس كذلك، عليه يمكن أن يصدق الادعاء بأنّ القيم ما هي إلا نتيجة لتراكم أو موقف من فعل أو عمل محدد، و الواقع أن هذه التبادلية التي سبق الحديث عنها ليست حكرًا على الفعل و القيم فقط ، ولكنها يمكن أن تكون هي العامل المشترك بين جميع مكونات رؤية العالم التي ذُكرت سابقاً.

ومن الجوانب المهمة أن "رؤية العالم" هذه يمكن أن تكون أداة جيدة لفهم الكثير من مشكلات العالم وحلها ؛ ذلك لأنها تعد بمثابة الخارطة أو الدليل الذي يسلك الشخص وفقاً له ، فإذا كان العقل هو الموجه الأساسي للسلوك فإن توجيهه يتم

⁶ Apostle, Leo and others, World Views From Fragmentation To Integration, Internet Edition2007p.13

وفقاً لعدد من الخيارات و البدائل التي دخلته أو اكتسبها بالتجربة أو التلقين ، والطريقان محكومان بـ"رؤية العالم" المسيطرة على المجتمع المعين ، عليه فإذا تعرفنا على الرؤية المسيطرة على المجتمع المعين يمكن أن نتنبأ بالسلوك المتوقع ، و إذا كان التوقع ممكناً فالسيطرة والتحكم يصير سهلاً وممكناً ، و من هنا فـ"السيبرناطيقا" يجب أن تزيد من اهتمامها بـ"رؤى العالم" أكثر من غيرها ، و المثال الأكثر وضوحاً على وعي الغرب و اهتمامه بـ"رؤى العالم" هو ما أكدته الدراسات من انشغال مراكز أبحاث الدراسات الإستراتيجية في الغرب بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بدراسة الإسلام ومحاولة فهمه ؛ وذلك حتى يتمكنوا من فهم السلوك أو الأعمال التي يقوم بها المسلمون؛ حيث لم يرجعوا انتشار ظاهرة الإرهاب إلى العوامل السياسية المباشرة فحسب ؛ وإنما أصروا على البحث عن "رؤية العالم" التي يتبناها هؤلاء ؛ وبهذه الطريقة يمكن أن يتعرفوا على الدوافع الشعورية و غير الشعورية التي تدفع هذه الفئة من الناس لتلك الأفعال.

كما أن الاهتمام بـ"رؤى العالم" يمكن أن يزود العلوم الإنسانية والاجتماعية بأداة تفسيرية تزيد من قدرتها التفسيرية و التنبؤية ، ولعل ضعف القدرة التنبؤية لتلك العلوم قد حطّ من مكانتها العلمية لفترة طويلة من الزمن ، وقد آن الأوان إذن لاستعادة تلك المكانة.

ويمكن أن تدفع دراسات "رؤى العالم" في طريق الحوار ؛ وذلك بإبراز المشترك بين هذه الرؤى المختلفة ؛ لأنّ هذه المشتركات يمكن أن تأسس بنية قوية للحوار بين الحضارات والأديان والثقافات ؛ ففي حالة الرؤى الدينية (إسلامية، مسيحية، يهودية) بالرغم من التعدد و التجزئة التي تعاني منها تلك الرؤى داخلياً ؛ بحيث يصعب وجود رؤية واحدة يمكن القول معها بأنها تمثل الرؤية الإسلامية أو المسيحية، إلا أن تلك الرؤى تتفق على أن الله هو الخالق المتعالي وأنه متصرف في هذا الكون كيف يشاء ، كما تتفق هذه الرؤى - أو المعتدل منها على الأقل- على نبذ العنف و تؤمن بحق الآخرين في الوجود و الدعوة لمذاهبهم ورؤاهم ، وهذه المشتركات تشكل مبادئ عامة لإدارة حوار هادف بين أتباع تلك الرؤى .

والقيم من أكبر المشتركات التي ينبغي التعويل عليها ؛ إذ لا يوجد مجتمع من المجتمعات لا يتبنى منظومة من القيم تصون وحدته و تحفظ كيانه ؛ إلا أن هذه القيم ليست أنماطاً ثابتة وكيانات جامدة تعكس طبائع جوهرية مطلقة للبشر ؛ بل هي تعبير أو انعكاس متفاوت يقبل التدرج لمراحل ومستويات من الخبرة و الواقع العيني الذي إذا ما تغير - تغيرت معه القيم التي تؤيده أو التي نشأت عنه. أما المبادئ أو المثل العليا فهي مسطورة بإطلاقها لدينا في نصوص القرآن والسنة كما هي مذكورة أيضاً في النصوص المقدسة لدى الغرب ؛ ولا خلاف بيننا في هذا الصدد ؛ وإنما الخلاف في الممارسة ؛ وليس في إثباتها داخل الكتب المقدسة⁷ ، وهذا الموقف يقود لا محالة إلى القول بالنسبية ؛ فالنسبية الثقافية هي - في الأساس- نسبية قيم ، و لكننا يجب أن نؤكد على أن هناك قيمة إنسانية مطلقة و ثابتة وقد تم تثبيتها أكثر من خلال التأكيد عليها في الكتب المقدسة ، و من ثم فإن كان هناك فرق أو اختلاف فهو يتعلق بالتطبيق والممارسة ؛ وليس في وجودها ؛ ومن هنا تدخل فكرة النسبية

⁷ قنصوة، صلاح، في فلسفة العلوم الاجتماعية، مكتبة الأنجلو المصرية 1987، ص 238

في عملية التقييم ؛ وهي فكرة داعمة جداً لعملية الحوار بين الثقافات ومن ثم التعايش ومن هنا يجب التركيز عليها داخل البحث.

رؤية العالم والنسبية الثقافية :

يطرح مناصرو النسبية مقاييس للتفاهم المتبادل لا يحكم الواقع بأنها جادة ، وحينما نفشل في استيفاء تلك المقاييس يزعمون أن التفاهم مستحيل ، إلا أن هذا التفاهم ممكن على المدى البعيد ، إذا توافرت الأداة الخيرة المشتركة وبذلنا من أجلها جهداً وافرأه؛ فبدلاً من أن تؤكد النسبية الثقافية إمكان الحوار و التعايش تنتهي إلى أن التفاهم مستحيل؛ وبالتالي فإن دور المؤمنين بالحوار كطريق أوحده لتحقيق التعايش بين الرؤى المختلفة - عليهم أن يعملوا على تأكيد أن التفاهم ممكن إذا ما تم التعرف على الرؤى الحاكمة لسلوك الآخر و فهمه ، وهذه المهمة ليست سهلة؛ ولكن مع ذلك يمكن اجتيازها ؛ فثمة افتراضات مشتركة بين الجماعات البشرية المختلفة⁹ ؛ فنقطة الانطلاق يمكن أن لا تكون هي هذه المشتركات بين الرؤى ، و لا حتى المشكلات أو المواقف المشتركة ؛ رغم فعاليتها في تحفيز الحوار و تعزيز التعايش ؛ و لكن التفاهم مبدأ بسيط و محل اتفاق عند غالبية الناس ؛ والكمال هدف عزيز المنال ؛ والكل يحتاج للكل سواء في التعلم أو الفهم ، ومن هنا يمكن أن نفهم مقصد الخالق من خلقنا بهذا التنوع والاختلاف؛ قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) (الحجرات : 13) وقد خلق الله تعالى البشر مختلفين في أشكالهم وألوانهم وألسنتهم وبيئاتهم ليتعاونوا فيما بينهم تقوية لأواصر القرابة وهذا أصل نظام الاجتماع البشري ؛ وبهذا يتبين أن التمايز البشري لم يكن لأجل التفاخر والتنازير والسخرية والتعالي وإنما هو لأجل التعارف والتعاون، وما التفاضل إلا بالتقوى والعمل الصالح ، ويبدو هذا المعنى واضحاً من سياق السورة وإليه ذهب جمهور المفسرين¹⁰ يقول أبو بكر الجزائري : (جعلكم الله شعوباً وقبائل وعائلات وأسر لحكمة التعارف المقتضي للتعاون ؛ إذ التعاون بين الأفراد ضروري لقيام مجتمع صالح سعيد فتعارفوا وتعاونوا ولا تتفارقوا لأجل التفاخر بالأنساب ؛ فإنه لا قيمة للحسب ولا للنسب إذا كان المرء هابطاً في نفسه وخلقته وفساداً في سلوكه فالشرف والكمال فيما عليه الإنسان من زكاة وروحه وسلامة خلقه وإصابة رأيه وكثرة معارفه)¹¹.

ويقول سيد قطب : (ناداهم "يا أيها الناس" والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم من ذكر وأنثى ، وهو يطالعكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل ؛ إنها ليست للتناحر والخصام . إنما هي التعارف والوئام . فأما اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات . وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله . إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس ، والكريم حقاً هو الكريم عند الله . وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازنين. وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة ،

⁸ بوبر ،كارل، أسطورة الإطار في دفاع عن العقل و العقلانية،ترجمة ديمنى طريف الخولي،سلسلة عالم المعرفة الكويت،2003.ص 60.

⁹ المرجع السابق، ص 64

¹⁰ تفسير ابن كثير - (ج 7 / ص 386) ،التحرير والتنوير - الطبعة التونسية - (ج 26 / ص 261) ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - (ج 18 / ص 83) ، تفسير السعدي - (ج 1 / ص 802)

¹¹ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير - (ج 5 / ص 131)

وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان . وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس . ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون : ألوهية الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى في ظل الله . وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس ، والعصبية للأرض ، والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت . وكلها من الجاهلية وإليها ، تنزى بشتى الأزياء ، وتسمى بشتى الأسماء . وكلها جاهلية عارية من الإسلام! وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها ، ليقم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة¹² و لذلك فإن الاختلاف بين البشر شيء إيجابي ؛ وهو من صميم طبائع الأشياء ، ومعلوم أن مائدة الطعام التي تضم صنفاً واحداً مهماً كان شهياً ليست أقيم من مائدة تضم أصنافاً متعددة ، فالتعدد والاختلاف إنما كان لمصلحة البشرية .

وحتى يتم تفعيل عملية التناقص بين الأطر الحضارية و الفكرية المختلفة يجب أن نعمل على حذف التصور الخاطئ الذي يجعل من عملية الحوار بين الحضارات معركة يكون فيها منتصر ومهزوم ؛ فالنجاح هو التفهم الأفضل للموقف الخاص بالخصم ؛ ولا شك أن مناقشة تنتصر فيها دون أن تعينك على إيصال أفكارك وتوضيحها إنما يجب اعتبارها خسراناً ميبيناً¹³ ؛ حيث إن وضوح الفكرة والموقف و الفهم الأفضل للذات و الغير هي الهدف الأقصى لعملية الحوار ، ومعلوم أن الكل يدخل تلك المناقشة و هو يحمل تصوراً مفاده أن ما يحمله من قيم و فهم هو الأفضل ، و هذا الفهم في حد ذاته فهم مدمر و معطل لعملية الحوار ، ولهذا يجب ألا نسلب الآخر أو نفسه تصوره ؛ لكن يجب أن نكشف له عن أن (الأفضل) ، و بعد عملية الكشف هذه عليه أن يقوم بتعبئة الفراغات وتصحيح التصورات ؛ فهذه هي الثمرة المرجوة من عملية الحوار و التناقص بين الأطر المتباعدة ، والفائدة التي يمكن جنيها من ذلك قد لا نجنيها من الحوار بين الأطر المتشابهة أو ذات الاختلاف الضئيل ؛ حيث لا يحتمل أن تكون المناقشة بين الذين يتقاسمون كثيراً من الآراء خصيبة مثمرة ، على الرغم من أنها قد تكون طليقة لطيفة، بينما تكون المناقشة بين الأطر واسعة الاختلاف خصيبة مثمرة إلى أقصى الحدود على الرغم من أنها قد تكون في بعض الأحيان عسيرة إلى أقصى الحدود¹⁴ ، ولاشك أن الاستعداد للتعلم من الآخرين يواجه عوائق خطيرة من النسبوية الثقافية¹⁵ ، ولكن مع وضوح الرؤية و تحديد الهدف يمكن التقليل من خطورتها بحيث يستمر الحوار ومعه الأخذ و العطاء ؛ ففكرة رؤية العالم تقوم أساساً على فكرة النسبية ، فطالما أن المنتج و هو الإنسان ، كائن محدود القدرات و الإمكانيات فإن الناتج لا بد أن يكون محدوداً بتلك القدرات أيضاً، بصرف النظر عن كون هذا المنتج علماً أو فناً أو فلسفة أو رؤية كونية أو رؤية عالم و التي هي في التحليل النهائي مجموع كل ذلك و نتيجته و المتسبب فيه في نفس الوقت .

وفي الإجابة عن الأسئلة المطروحة في صدر هذه الورقة ؛ فهناك رؤى متعددة ليس لتعدد الحقائق أو الاهتمامات فحسب وإنما لتعدد زوايا النظر أيضاً، كما حدث للعميان مع فيل أفلاطون¹⁶ ؛ ولهذا فإن رؤية كل فرد أو مجموعة للعالم

¹² في ظلال القرآن - (ج 7 / ص 4)

¹³ بوبر، كارل، أسطورة الإطار في دفاع عن العقل و العقلانية، مرجع سابق، ص 71

¹⁴ نفس المرجع، ص 62

¹⁵ نفس المرجع، ص 74

¹⁶ ملخص المثال الذي قدمه أفلاطون أن مجموعة من العميان انطلقوا إلى فيل ، فأمسك كل واحد منهم بجزء منه و عندما طلب منهم أن يصفوه وصف كل واحد منهم الجزء الذي يمسك به على أنه الفيل، ونحن نعلم أن ذلك ليس صحيحاً كما أن مجموع أوصافهم له يمكن أن لا يكون وصفاً صحيحاً للفيل.

تختلف عن الآخرين وذلك لاختلاف الزوايا التي ينظرون من خلالها للعالم، و ما نعينه بزوايا الرؤية في الأساس هي الأسئلة التي تسأل و من ثم الأجوبة التي تقدم لها، فأسئلة المتدين غير أسئلة الملحد وأسئلة الفيلسوف غير أسئلة الفنان غير أسئلة العالم ؛ وبالضرورة فإن الأجوبة أيضا تختلف ، و لا يعني ذلك بالضرورة ألا تكون هناك نقاط التقاء بين تلك الأطراف و الرؤى ، و لكن ما يهمنا أن الاختلاف حقيقي و قائم، وبالتالي فإن الإجابة عن السؤال هل يمكن توحيد تلك الرؤى في رؤية واحدة ؟ يرى الباحث إن ذلك ليس ممكنا ؛ إذ إن الاختلاف ظاهرة و حقيقة ربانية لا تتلاشى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (هود: 118-119) فهذه إرادة الله الكونية القدرية لا الشرعية¹⁷.

ولهذا ذهب عطاء الله صديقي إلى أن الدعوة إلى الإسلام تقوم على الكلمة ، و لا تقوم على تحويل الدين وتغييره بصورة أولية ؛ لأن خيار الإنسان لدينه هو مسألة قلبية بيد الله وحده ؛ ولكن يجب أن يشارك المسلمون في الحوار الديني مع أصحاب الاعتقادات الأخرى ومع المسيحيين على سبيل الخصوص ؛ لأن المسيحية جزء مهم من المجتمع الغربي وحضارته ، وهي من المحددات الفاعلة في المجتمع الغربي على الرغم من تنوعه وتطوره التاريخي¹⁸ ؛ هذا وقد دعا صديقي إلى حياة إنسانية مشتركة تجمع أتباع الأديان المختلفة في سياق تعددي وتسامح ديني ضمن المواطنة في المجتمعات الغربية ، وهو يستند إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كدعامتين أساسيتين لمجتمع واحد ، ويرى صديقي أن المجتمع الإنساني - في السياق الغربي - فيه خيرية و لا تنحصر الخيرية في المسلمين فقط كما يرى.

ومعلوم أن رؤى العالم يمكن أن تكون أطراً تحبس في داخلها عدداً مقدرًا من المنتمين إليها ؛ ولكنها ليست محكمة الإغلاق ؛ أي: أن هناك إمكانا مستمرا في أن ينتقل فرد ما من إطار إلى آخر كما أن هناك مشتركات بين الرؤى المختلفة في أغلب الأحوال ، وهي ما يركز عليها دعاة التوحيد والتحاور بين الأطر أو الرؤى المختلفة .

رؤية العالم و طبيعة الاجتماع الإنساني من المنظور القرآني:

من المسلمات التي أوردها القرآن فيما يتعلق بالاجتماع الإنساني الآتي:

1- إن نشأة البشر قد تمت من نفس واحدة ؛ هي مصدر كل البشر الموجودين اليوم ؛ قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) (النساء: 1)

2- تم البث عن طريق أصرة الزواج ؛ وبالتالي فهي الطريق الأوحى لزيادة البشر ؛ وهي كذلك عامل مهم من عوامل الحفاظ على المجتمع.

¹⁷ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - (ج 18 / ص 113) ، التحرير والتنوير - الطبعة التونسية - (ج 12 / ص 190) ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - (ج 3 / ص 229) ، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب - (ج 1 / ص 47) ، درء تعارض العقل والنقل - (ج 4 / ص 332)

¹⁸ Dr Ataula siddigui, The purpose of interface dialogue. The Islamic foundation, WWW.islamic, foundation.org.uk 2009.

- 3- لم يخل مجتمع من شريعة دينية تنظم له شؤونها قال تعالى : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ وَإِنْ يَكُذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) (فاطر : 24-25) .
- 4- إن الخلاف و التنوع من صميم طبيعة الخلق ؛ قال تعالى : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (هود: 118-119) .
- 5- قبول الدين يتم طوعاً و بلا إكراه ؛ قال تعالى : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقرة : 256) .

6- التدين و العبادة تشمل جميع أوجه الحياة ؛ قال تعالى : (قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) (الأنعام: 162- 163) و بذلك تكون العبادات المخصصة هي جزء من هذا المفهوم ؛ وليست كله ؛ فالإنسان ليكون عابداً -في الرؤية الإسلامية- ليس بالضرورة أن يكون منتسكاً و مختلياً مع نفسه ، فهو في جميع أحواله يمكن أن يحقق معنى العبادة ؛ فالعمل عبادة و النوم عبادة و قضاء الوطر مع الزوجة عبادة ... الخ

7- رسالة الإنسان في الأرض تتمثل في إعمارها ؛ قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) (الذاريات : 56-58)

و بالنظر إلى تلك الحقائق نخلص إلى أن المنظور الاجتماعي القرآني منظور واقعي ؛ من حيث استيعابه للدرس المستفاد و المستخلص من تاريخ البشرية الطويل على ظهر هذا الكوكب ، كما أنه منظور استشرافي بنائي من حيث إنه يحمل تصورات و قيماً يسعى لحمل المجتمع على التمسك بها، و لكن القيم في هذه المرة ليست قيماً متعالية على المجتمع ؛ وإنما هي نابعة من صميم خبرات و تجارب المجتمع أو على الأقل فهي تتماهى معها.

وإذا أخذنا هذه المسلمات واحدة واحدة و عرضناها للتحليل و الفحص لنعرف ماهية الدرس القيمي الكامن وراءها نصل إلى انتفاء مقولة التميز العرقي و الإثني ؛ فالكل يعود إلى الأصل نفسه ، و هذا الدرس في غاية الأهمية، ولكنه لا يقفز على واقعة أن هناك تنوعاً إثنياً اجتماعياً و ثقافياً دينياً ، فهذه الحقيقة من الوضوح و القوة بحيث يصعب تجاوزها ؛ فالبشر لا يزالون مختلفين ، و هذا من طبائع الأشياء ؛ لكن الحوار الحضاري قيمة مستحبة و واجب حضاري ؛ ولكن بلا إكراه أو عنف ؛ فتعدد الأديان إذاً حقيقة تكاد تصل إلى كونها تنبع من صميم طبيعة الإنسان نفسه. فما هي رسالة المسلم إذاً في ظل واقعة التعدد الديني التي جزمنا بأنها حقيقة واقعة ؟ للمسلم رسالتان : رسالة تعود إلى الأصل ؛ أي : إلى كونه إنساناً ؛ وذلك محكوم بقوله تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) و واضح أن رسالة الإنسان في هذه الحالة هي العمل على عمارة الأرض و "يعبدون" في هذا السياق تعني يعملون ، و العبادة أو العمل في هذه الحالة تخص الإنسان و هو المنتفع بها أولاً و أخيراً ، و ذلك يستوجب إخلاص العبادة لله وحده و العبادة هنا تتسع أيضاً لتشمل تقريباً كل أوجه النشاط الإنساني ابتداءً من الصلاة و الصيام و غيرها مروراً بكل منقلبات الحياة و انتهاءً بالموت ؛ قال تعالى : (قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ

أَمْرٌ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) (الأنعام:162-163) وهنا -بالضبط - يكمن البعد الاجتماعي للدين الإسلامي ؛ ذلك البعد الذي يتلاشى فيه الفاصل بين الديني والحياتي ؛ فالكل دين و الكل عبادة .

الدين الإسلامي يؤكد أن قبول الدين يتم طوعاً و بلا إكراه، قال تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ذلك لأن الإيمان بالدين هو قبول قلبي وجداني و كل الطقوس التعبدية البادية تنبني على هذا الموقف القلبي، و معلوم أن هذا النوع من الإيمان ليس في وسع أي شخص أن يفرضه على الآخرين، وهذا ما أكده القرآن الكريم في غير ما آية ، ومن هنا نجد اتفاقاً تاماً بين العقل والنقل على منع إكراه الناس على الدخول في الدين. فالحرية الدينية بذلك تكون ميزة من مميزات المنظور الإسلامي للاجتماع الإنساني ، فليس هناك من سبيل أمام هذه الآيات المحكمة والواضحة الدلالة بالإضافة لممارسة الرسول الكريم صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، إلى القول بإكراه الناس على قبول الدين .

ولاشك أن الحرب وما فيها من التفجير و القتل الجماعي تمثل واحدة من أكبر التحديات التي تعترض مسيرة التعايش بين البشر و للحرب دوافعها الفكرية و الأيديولوجية مع غيرها من العوامل الاقتصادية و السياسية ، ولكن العنف مرفوض في كل الشرائع السماوية إلا دفاعاً ، فواحد من الحدود الدنيا للتعايش بين الناس يجب أن يكون هو نبذ العنف، حتى يفسح المجال للحوار ، ليصبح إمكان الحوار حداً أدنى وصولاً للتفاهم القائم على تفهم عقائد الغير و أفكارهم و ثقافتهم ؛ وهذا الأمر يعبر عن رؤية إستراتيجية واضحة وراسخة ؛ لأن في تمكينه أمناً و طمأنينة للجميع.

وعليه فإن الحفاظ على السلم و الأمن العالمي مسؤولية تضامنية يجب أن ينخرط فيها الجميع ، والمسلمون مخاطبون تكليفاً بالدخول في هذا السلم ، وقد فطن الإنسان منذ أقدم العصور إلى ضرورة تأطير السلم بعدد من الموثيق و العقود التي تضمن استدامته ؛ ولهذا كفل الله الحق في رد الاعتداء بكافة الوسائل ؛ قال تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (البقرة: 190) فلا مشروعية لقتال في الإسلام إلا بعد سبق اعتداء و كل الآيات التي تتحدث عن القتال تحمل شروطها في داخلها و هي مشروطة و مؤطرة بالآية الأولى نزولاً في التشريع للقتال أعني قال تعالى : (أَإِنَّ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) (الحج:39)

فالرؤية الإسلامية للعالم و التي يبرزها القرآن بشكل أساسي لا مكان فيها للعنف و القتل أصلاً ؛ وهي رؤية متسامحة تمتاز باحترام كافة المعتقدات و الثقافات ؛ فهذا الدين يحمل رؤية يمكن أن تقود الحوار و التعايش بين الأديان و الحضارات و الثقافات المختلفة ؛ فالتعددية الثقافية و الحضارية حقيقة ماثلة وقيمة إيجابية إذا ما أحسنا التعامل معها ، ومن الميسور للحضارة أن تتبثق من قيم أصلية واحدة إذا التزمت أمرين:

الأول : الاستماع الواعي ؛ حيث نسمع ونستمع .

الثاني : أن نعدم لانتقائية نتبع فيها أحسن ما نستمع إليه ليضاف إلى ثوابتنا¹⁹؛ فالاستماع للغير مهارة مهمة جداً ينبغي العمل على تنميتها، بحيث تكون هادفة وفاعلة ؛ فهي المدخل للفهم و من ثم تمهد للعملية الثانية و هي الاختيار .

¹⁹ أبو شقة، عبد الحليم ، نقد العقل المسلم ، الأزمة و المخرج، دار القلم القاهرة، الطبعة الأولى 2001 ،ص197

وقد أخبرنا القرآن في بعض آياته أن الخوف من الاستماع و سد الأذان إنما هي علامة من علامات الضعف الفكري ، فالذين يسدون أذانهم يخشون على عقائدهم الضعيفة من التبديل والتغيير ، والإسلام بحجته البالغة لا يخشى التغيير والتبديل ؛ لأنه الحق الذي لا يتغير ولا يتبدل ؛ ولهذا كان المسلمون مأمورين بالحوار لا بتجنبه ؛ ويدل تأريخ الفكر الإسلامي الطويل أن الإسلام لم يخسر قط في معركة فكرية و حوار مكشوف.

خلاصة:

خلصت الورقة إلى أن "رؤية العالم" تلعب دوراً محورياً في فهم وتفسير السلوك الإنساني ؛ لأنها تعتبر بمثابة الخارطة التي يسلك الشخص وفقاً لها، كما خلصت إلى أن رؤية العالم مجدولة من ثلاثة عوامل أساسية هي الرؤى و التصورات و المعتقدات ؛ وهذه العوامل منها ما يتوصل إليه الفرد بخبرته في الوجود و منها ما هو موروث من تراكم خبرات الأجيال السابقة ؛ هذا مع عدم إغفال ما تمليه البيئة المحيطة من مؤثرات . والحوار لا يكون فاعلاً إلا إذا تأسس على فهم معقول لـ"رؤية العالم" التي يتبناها المخاور، أما الهدف الأقصى للحوار فهو احترام الآخر و التعايش معه و ليس إزاحته مع التأكيد على استحالة توحيد رؤى البشر جميعاً في رؤية واحدة ، انطلاقاً من حقيقة أن الاختلاف سنة كونية لا يمكن تبديلها.

المراجع:

- 1- بريمة، محمد الحسن، الظاهرة الاجتماعية و نظامها المعرفي في القرآن الكريم، ط/ إسلام المعرفة جامعة الجزيرة .
- 2- بوبر، كارل، أسطورة الإطار في دفاع عن العقل و العقلانية، ترجمة ديمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة الكويت 2003.
- 3- الجزائري: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر ، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ط/ 5 مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1424هـ/2003م .
- 4- بن تيمية: أحمد بن عبد الحلیم : درء تعارض العقل والنقل ، تحقيق محمد رشاد سالم ، ط/ دار الكنوز الأدبية - الرياض ، 1391.
- 5- زياد الدغمين : العولمة وانعكاساتها على العالم الإسلامي في المجالين الثقافي والاقتصادي ، تحرير : وقائع الندوة العلمية التي عقدت في بتاريخ 3 - 4 أيار مايو 2006م في الأردن بالتعاون بين المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومنظمة الايسيسكو وجامعة آل البيت - دار الرازي الأردن الطبعة الأولى 2008م .
- 6- السعدي : عبد الرحمن بن ناصر ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط/1 مؤسسة الرسالة، 1420هـ - 2000م
- 7- سيد قطب : في ظلال القرآن ، ط/ دار الشروق "دب" .
- 8- أبوشقة، عبد الحلیم ،نقد العقل المسلم الأزمة و المخرج، دار القلم القاهرة، الطبعة الأولى 2001.
- 9- الشنقيطي : محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ط/دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان 1415 هـ - 1995 م.
- 10- بن عاشور : محمد الطاهر : التحرير والتنوير ، ط/ دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس ، 1997م.
- 11- بن عطية الأندلسي: عبد الحق بن غالب : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي ، ط/: دار الكتب العلمية - لبنان - 1413 هـ - 1993م.
- 12- قنصوة ،صلاح، في فلسفة العلوم الاجتماعية، مكتبة الأنجلو المصرية 1987.
- 13- ابن كثير : إسماعيل بن عمر ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق سامي بن محمد سلامة ، ط/2 دار طيبة للنشر والتوزيع 1420هـ - 1999.

مراجع أجنبية

1. Weber ,Max ,The Protestant Ethic and The Spirit Of Capitalism, London Allen And Unwin, First Publication.
2. Sire ,James W., Naming The Elephant, World View As A Concept, InterVarsity Press Downers Grove ,Illinois.
3. Sire ,James W., The Universe Next Door, A Basic Worldview Catalog, ,InterVarsity Press, Downers Grove, Illinois, Fourth Edition.
4. Apostel, Leo and others, World Views From Fragmentation To Integration, Internet Edition 2007.
5. Dr Ataula siddigui, The purpose of interface dialogue. The Islamic foundation, WWW.islamic, foundation.org.uk 2009.